تقديم

تأتى دراستى لخطط القاهرة الثلاثة المدونة فى عنوان الكتاب استكمالاً للخط البحثى الذى بدأته فى كتابى الأول عن "حى باب البحر" لما تحققه هذه الدراسات من إضافات تبرز دور هذه الأحياء، وتخطيطها ومراحل عمرانها والعمائر التى اشتملت عليها، والمجتمعات التى سكنتها. مما يشير إلى مراحل الازدهار والضعف والوهن التى تعرضت لها عبر عصورها المتعاقبة، ومن ثم الجدية والأصالة للدراسة.

ولما كان كتاب الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك قد مضى على صدوره أكثر من مائة عام، والذى وضعه بعدما رأى قدم العهد بخطط المقريزى، وتغيير كثير من المعالم، بل واختفاء بعضها لدرجة يصعب معها التحقق مما ورد فى مؤلفه والتعرف على كثير من المعالم، فوضع كتابه الذى أوضح فيه بالتحقيق المواضع الواردة بخطط المقريزى وبيان حالتها وماآلت إليه العمائر – التى ذكرها – فى عصره، وتحديد مواضع المفقود منها.

وإزاء هذا البعد الزمنى لكتاب الخطط التوفيقية وتغيير الكثير من المعالم داخل خطط القاهرة ومدنها نتيجة لإدخال الأساليب الحديثة فى التخطيط والتنظيم ووسائل المواصلات ووقوع أحداث كثيرة غيرت من تاريخها ومعالمها، كان من الواجب الاتجاه والتصدى لتناول مثل هذه الموضوعات بالدراسة التى تكشف عن المراحل التطويرية لها، وتحقيق مواضع بعض أخطاطها وعمائرها التى ضاعت معالمها، والتعريف بالعمائر التى تضمها، ومراحل تطور عناصرها المعمارية، ومظاهر الحضارة داخلها وهو ما حفزنى على استكمال دراسة هذه الأحياء الثلاثة ليكون هذا الكتاب هو الحلقة الثانية فى سلسلة دراسة أحياء القاهرة التى أعتزم بعون الله تعالى استكمالها.

ومن أجل تحقيق الهدف الرئيسى من هذه الدراسة واجهتنى العديد من الصعاب التى تمثلت فى جانبين متلازمين هما الجانب الأكاديمي، والجانب الميدانى:

أما الجانب الأكاديمى: فقد انحصرت الصعوبات فى ضرورة قراءة مصادر الفترة موضوع البحث قراءة متأنية، بغية الوصول إلى معلومات تكشف عن بعض الأمور المبهمة التى يتضمنها البحث وتنقسم هذه المصادر إلى نوعين:

النوع الأول: المصادر المخطوطة، ومنها:

١- اقبغا الخاصكى: التحفة الفاخرة فى ذكر رسوم خطوط القاهرة.

٢- البكرى (أبو السرور): قطف الأزهار من الخطط والآثار.

٣- حسين وفائى: نزهة الأبصار فى خطط مصر وما فيها من الاثار.

وقد قدمت هذه المخطوطات بعض المعلومات التى تخص جوانب هامة من جوانب البحث، غير أن معظمها قد جاءت معلوماته معتمدة على كتاب المؤرخ العظيم تقى الدين المقريزى "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار". والذى أفاد البحث إفادة كبيرة فى تتبع تخطيط هذه الأخطاط وأصولها التاريخية.

النوع الثانى: المصادر المطبوعة، ومنها:

١- ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور.

٢- ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة.

٣- ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات.

٤- ابن الوردى: تاريخ ابن الوردى، المعروف بالمختصر فى أخبار البشر.

٥- ابن زنبل الرمال: تاريخ السلطان سليم خان مع السلطان قنصوة الغورى.

وهذه المصادر وغيرها كثير ضمن قائمة المصادر التى أفادت البحث إفادات كبيرة فى الكثير من النواحى مثل: التراجم، وتحقيق تواريخ بعض المنشآت، وتتبع وظائف بعض الأمراء، وكذلك بعض الأحداث التاريخية التى شارك فيها أحد أمراء العصر الجركسى والمشيدة مدرسته بالجودرية بالإضافة إلى ذلك، فقد اعتمد البحث على مجموعة من المعاجم اللغوية التى يسرت تفسير بعض الكلمات الوثائقية الخاصة بالتخطيط والتجارة، والوظائف والحرف، مثل:

١- ابن سيده: المخصص.

٢- ابن منظور: لسان العرب.

٣- الزبيدى: تاج العروس.

٤- الفيروزآبادى: القاموس المحيط.

٥- المعجم الوسيط.

٦- السيد ادى شير: معجم الألفاظ الفارسية المعربة.

٧- سعيد الخورى: أقرب الموارد فى فصح العربية والشوارد.

وغيرها معاجم أخرى ضمن قائمة المصادر والمراجع.

أما المراجع الحديثة العربية، فيأتى على رأسها مؤلفات الأستاذ الدكتور حسن الباشا التى

اعتمدت عليها فى كتابى إعتماداً مباشراً مثل: الكتاب القيم عن الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار، والفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية. حيث أفاد كلاهما فى تفسير بعض الألقاب التى اتخذها بعض أمراء العصر المملوكى المشيدة عمائرهم داخل هذه الأخطاط. وكذلك تتبع تطور الوظائف ومدلولاتها لمن عمل بها داخل هذه الأحياء.

بالإضافة إلى المؤلفات الأخرى العديدة لسيادته والتى تضمها قائمة المراجع.

وتعد الوثائق بمثابة الدعامة الأساسية التى قام عليها البحث، فقد عكفت على قراءة عشرات الوثائق المحفوظة فى دور الوثائق القومية، وأرشيف وزارة الأوقاف، وسجلات المحاكم الشرعية، والتى تعود للعصر الأيوبى والمملوكى والعثمانى وعصر محمد على.

ولا يخفى على أحد الصعوبات التى تجابه الباحث فى هذه الوثائق من حيث رداءة الخط المدونة به وصعوبته فضلاً عن افتقادها للنقط، مع تآكل بعض أجزائها وتداخل كلماتها.

وقد تمكنت - بفضل الله تعالى – من قراءة عدد كبير منها، وتوظيف معلوماتها فى خدمة الأقسام العديدة التى يضمها البحث؛ من حيث توضيح نشأة بعض هذه الأحياء، وتطور مسمياتها، وبيان تخطيط بعضها، ومظاهر الحضارة داخلها (التجارة - الوظائف والحرف - المجتمع)، والاستفادة من بعضها فى تصميم مساقط أفقية تصورية للآثار الدارسة، وتعديل بعض أجزاء العمائر الباقية.

بجانب هذا المصدر الخصب: أفاد البحث من بعض المراجع الأجنبية التى تناولت موضوعات مباشرة ضمن هذه الأخطاط أو بحوث مساعدة لذلك، مثل:

مؤلفات كريزول، التى استعان البحث ببعضها مثل:

Creswell (K.A.C), The Muslim Architecture of Egypt. Vol II Oxford 1959.

وفى هذا المؤلف قدم كريزول بحثاً قيماً عن قبة حسام الدين طرنطاى اعتمدت عليه عند تناولى لهذه القبة، مع إضافات أخرى تضمنها الفصل الخاص بهذه القبة.

كذلك مؤلفه الخاص بتأصيل تخطيط المدارس القاهرية.

The Origin of the Cruciform Plan of Cairiene Madrasas Le Caire 1922.

والذى أفاد فى تأصيل تخطيط المدرسة التى أنشأها بيبرس الخياط بالجودرية.

بجانب ذلك هناك الكثير من المراجع الأجنبية التى اعتمد عليها البحث فى المجال الأثرى والحضارى تضمنتها قائمة المصادر والمراجع.

أما الجانب الثانى: فهو الجانب الميدانى، وقد تضمن هذا الجانب زيارات ميدانية متكررة

للأحياء الثلاثة لمحاولة عمل خرائط مساحية لها استرشاداً بالخرائط التى نفذتها مصلحة المساحة، وذلك عبر العصور. فقمت بعمل أربعة عشرة خريطة توضح تخطيط هذه الأحياء منذ العصر الفاطمى وحتى نهاية العصر العثمانى والعصر الحديث، مع محاولة الربط بين ما هو موجود بالفعل من دروب وازقة وحارات، وبين ما ذكرته الوثائق والمصادر، وإثبات ما ضاعت معالمه منها داخل هذه الخرائط، وإثبات مواقع الأسواق التى كانت تضمها. والمشاهد لهذه الخرائط مجتمعة يستطيع أن يتبين مراحل العمران، وتطور تخطيط هذه الأخطاط فى ضوء ما توصل إليه البحث من معلومات مستقاة من مصادر أصيلة للفترات الزمنية التى تناولها الكتاب.

بجانب هذه الخرائط قمت بعمل مساقط أفقية لجميع العمائر التى تضمنتها الأحياء بمعرفة مهندس مختص للطابق الأرضى والثانى والواجهة، وعمل قطاع داخلى لبعض هذه العمائر.

كذلك قمت بتصوير جميع أجزاء هذه الآثار تصويراً فوتوغرافياً رغم الصعوبات التى واجهتنى فى هذا المضمار، كما وصفت هذه العمائر وصفاً دقيقاً، وقمت بتحليل عناصرها المعمارية والنزول فى زيارات ميدانية متكررة فى أحياء القاهرة لمحاولة توضيح التأثيرات المتبادلة بين هذه العمائر وغيرها من العمائر المشيدة فى غيرها من الأحياء، وكذلك تتبع التأثيرات الوافدة عليها.

كذلك قمت بالنزول إلى المتاحف لتوضيح الوصف الفنى للكثير من التحف التى ذكرتها وثائق العصر العثمانى، والتى تضمنتها منازل هذه الأحياء.

وقد تناول الكتاب هذين الجانبين على امتداد أربعة أبواب كاملة فى أربعة عشر فصلا:

الباب الأول: خصصته لدراسة العمران والتخطيط، وقسمته إلى فصلين:

الفصل الأول: العمران.

الفصل الثانى: التخطيط.

الباب الثانى: العمائر الدينية، وقسمته إلى أربعة فصول:

الفصل الأول: مدرسة حسام الدين طرنطاى.

الفصل الثانى: مدرسة مقبل الداودى.

الفصل الثالث: مدرسة بيبرس الخياط.

الفصل الرابع: جامع العربى.

الباب الثالث: العمائر المدنية، وقسمته إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: العمارة التجارية. وفيه تناولت المنشآت التى ضمتها الأخطاط والمتميزة بصفتها التجارية؛ حيث بدأت بالمنشآت التجارية الباقية ثم الدارسة.

الفصل الثانى: العمارة الاجتماعية. وفيه تناولت ذات الصفة الاجتماعية مثل الحمامات والأسبلة الباقية والدارسة.

الفصل الثالث: العمارة السكنية. وفيه تناولت أنماط المنشآت السكنية التى شيدت داخل هذه الأخطاط والتى استطعت الوقوف عليها من خلال الوثائق.

الباب الرابع: المظاهر الحضارية، وقسمته إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: التجارة. وفيه تعرضت للأسواق والمنشآت التجارية، والبضائع التى تخصصت فيها هذه الأسواق وأسعارها خلال العصور المتعاقبة.

الفصل الثانى: الحرف والوظائف. وفيه تناولت الحرف التى ارتبطت بهذه الأحياء والوظائف التى ضمتها المنشآت.

الفصل الثالث:المجتمع. وتعرض هذا الفصل لدراسة سكان هذه الأحياء وجنسياتهم ودياناتهم، وطبقاتهم، وحياتهم الاجتماعية، والفنون التى اشارت إليها الوثائق داخل دورهم. واختتمت الكتاب بأهم النتائج التى أسفرت عنها الدراسة واتبعت ذلك بملحقين يتصلان اتصالا وثيقا بموضوعاته فى الأول: قمت بنشر النص الوثائقى الخاص بوصف مدرسة الأمر بيبرس الخياط(٩٢١ هـ/ ١٥١٥م).

وفى الثانى: تناولت المصطلحات التى تضمنها الكتاب مرتبة ترتيبا أبجدياً، ثم ألحقت ذلك بفهرس للأشكال واللوحات، ثم قائمة بأهم المصادر والمراجع التى اعتمد عليها الكتاب.

وفى النهاية: لا يسعنى إلا أن أتوجه بخالص شكرى وعظيم امتنانى إلى كل من مد لى يد العون والمساندة، وأخص منهم أستاذى الفاضل العالم الجليل الأستاذ الدكتور/ حسن الباشا رحمه الله رحمة واسعة حيث كان لرعايته الأبوية الحانية الفضل الأكبر فى خروج هذا العمل إلى الوجود، ، فجزاه الله عنى خير الجزاء وأدخله فسيح جناته على ما قدم وأعطى.

كما اتوجه بخالص شكرى إلى أ.د. ربيع خليفة أستاذ الآثار الإسلامية بكلية الآثار – جامعة القاهرة الذى كان له فضل توجيه انتباهى لدراسة مثل هذه الموضوعات فلسيادته كل الشكر وعظيم التقدير، كذلك أخص بالشكر العالم الجليل أ.د. أحمد عبد الرازق أحمد أستاذ الآثار الإسلامية بجامعة عين شمس على ملاحظات سيادته القيمة التى كان لها دورها البارز فى خروج هذا الكتاب على هذا النحو فله منى كل الشكر والتقدير.

كما أتقدم بخالص دعواتى القلبية إلى المولى عز وجل أن يرحم أستاذى الفاضل أ.د. رياض العتر على كريم مساعدته وتوجيهاته وأن يتغمده بواسع رحمته.

كما لا يفوتنى أن أتوجه بالشكر إلى جميع أساتذتى وزملائى بأقسام الآثار الإسلامية بالجامعات المصرية لما سيقدمونه لى من ملاحظات – بعد قراءة الكتاب – تساعدنى على تلافيها فى الطبعة القادمة.

والله أسأل دوام التوفيق،،،

محمد محمود على الجهينى

حلوان فى ١٠/ ٨/ ٢٠٠٦م

obeikandl.com